المجموعة التاريخية للصغار

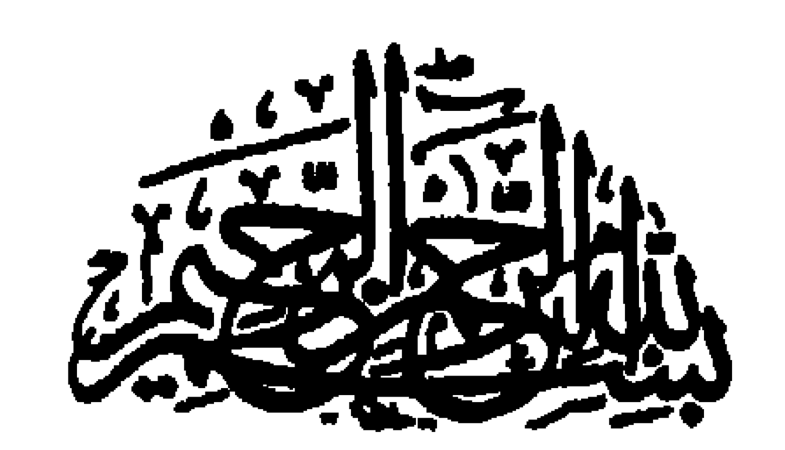
عجائب رحلة ابن بطوطة

المغرورُ أبو الطبولِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار:

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب: 78

هاتف 3 2213129 / 2269599 فاكس: 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

المَغْـرُورُ أَبُـو الطُّبُـولِ

كَانَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ قَدْ رَوَىٰ لِلسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَقَائِعَ انْفِصَالِهِ عَنْ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ حِينَ خَرَجَ بِصُحْبَةِ أَمِيرِ رَكْبِ العِرَاقِ فِي جَمْعٍ مِنَ العِرَاقِيِّينَ وَالخُرَاسَانِيِّينَ وَالأَعَاجِمِ لا يُحْصَىٰ عَدِيدُهُمْ. وَكَانَ مَلِكُ العِرَاقِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ هُوَ السُّلْطَانَ أَبَا سَعِيدٍ الذِي جَعَلَ فِي الرَّكْبِ العِرَاقِيِّ جُمْلَةً مِنَ الجِمَالِ يُحْمَلُ عَلَيْهَا مَنْ لا قُدْرَةَ لَهُ عَلَىٰ المَشْيِ صَدَقَةً وَإِحْسَاناً لِوَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ. وَبَعْدَأَنْ حَدَّثَهُ عَنْ اجْتِيَازِ الرَّكْبِ إِلَىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَالإِقَامَةِ سِتَّةَ أَيَّامٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ الرَّسُولِ ﷺ بَلَغُوا إِلَىٰ نَجْدٍ تَشْرِيقاً، وَذَكَرَ لَهُ كَثِيراً مِنَ المَوَاضِعِ حَتَّىٰ نَزَلُوا القَادِسِيَّةَ، حَيْثُ كَانَتْ المَوْقِعَةُ الشَّهِيرَةُ عَلَىٰ الفُرْسِ التِي أَظْهَرَ اللهُ فِيهَا دِينَ الإِسْلامِ وَأَذَلَّ المَجُوسَ عَبَدَةَ النَّارِ.

وَفِي التَّمْهِيدِ لِقِصَّةِ المَغْرُورِ أَبِي الطُّبُولِ ، حَكَىٰ ابْنُ بَطُّوطَةَ عَنْ نُزُولِهِ بِمَدِينَةِ مَشْهَدِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ بِالنَّجَفِ . وَقَالَ :

إِنَّهُمْ دَخَلُوهَا مِنْ بَابِ الحَضْرَةِ تَحْتَ قُبَّةٍ فَوْقَ مَسْطَبَةٍ مُرَبَّعَةٍ تَحْوِي ثَلاثَةً مِنَ القُبُورِ يَزْعُمُونَ أَنَّ أَحَدَهَا قَبْرُ آدَمَ ، وَالثَّانِي قَبْرُ نُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلامُ ، وَالثَّالِثُ قَبْرُ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ .

وَقَدْ ظَهَرَتْ لِرَوْضَةِ القُبُورِ بِالنَّجَفِ كَرَامَاتٌ ثَبَتَ بِهَا عِنْدَهُم أَنَّ بِهَا قَبْرَ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ ، وَاسْتَحَبُّوا زِيَارَتَهَافِي لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ ، وَتُسَمَّىٰ عِنْدَهُم لَيْلَةَ المَحْيَا ، وَذَكَرُوا أَنَّ مَنْ أَقَامَ فِيهَا مُلازِماً الضَّرِيحَ ، وَكَانَ مُقْعَداً رُزِقَ بِالشِّفَاءِ وَالمُعَافَاةِ وَقَامَ يَمْشِي صَحِيحاً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ جَعَلَ شِيعَةُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَلَىٰ النَّجَفِ قَيِّماً هُوَ نَقِيبُ الأَشْرَافِ ، وَنَقِيبُ الأَشْرَافِ مُقَدَّمٌ مِنْ مَلِكِ العِرَاقِ ، وَمَكَانُهُ عِنْدَهُ

مَكِينٌ ، وَمَنْزِلَتُهُ رَفِيعَةٌ ، وَلَهُ تَرْتِيبُ الأُمَرَاءِ فِي سَفَرِهِ ، وَلَهُ الأَعْلامُ وَالطُّبُولُ وَتُضرَبُ (الطَّبْلَخَانَةُ) عِنْدَ بَابِهِ مَسَاءً وَصَبَاحاً ، وَإِلَيْهِ حُكْمُ هَذِهِ المَدِينَةِ ، وَلا وَالِيَ بِهَا سِوَاهُ ، وَلا مَغْرَمَ لِلسُّلْطَانِ وَلا لِغَيْرِهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ مُخَاطِباً نَدِيمَهُ الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُّوطَةَ :

مَا الخَبَرُ العَجِيبُ الذِي وَعَدْتَ بِسَرْدِهِ بَعْدَ هَذِهِ الدِّيبَاجَةِ الطَّوِيلَةِ ؟ وَهَلْ لَكَ أَنْ تَخْتَصِرَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ ؟ !

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَمْ أَسُقْ إِلَيْكَ مِنَ الكَلامِ ، إِلاَّ مَالا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ لِفَهْمِ حِكَايَةِ المَغْرُورِ أَبِي غُرَّةٍ أَوْ أَبِي الطُّبُولِ كَمَا لَقَّبُوهُ . فَقَدْ آلَ إِلَيْهِ مَنْصِبُ نَقِيبِ الأَشْرَافِ بِالنَّجَفِ الشَّرِيفِ وَلَكِنَّهُ أَضَاعَهُ بِغُرُورِهِ الآثِمِ ، وَبِإِيثَارِهِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الآخِرَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُتَلَهِّفاً لِسَمَاعِ القِصَّةِ العَجِيبَةِ :

ـ قُلْ مَا عِنْدَكَ بِلا إِبْطَاءٍ . مَاذَا كَانَ مَصِيرُ نَقِيبِ الأَشْرَافِ المَغْرُورِ المُلَقَّبِ بِأَبِي الطُّبُولِ ؟ !

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ كَانَ الشَّرِيفُ أَبُو غُرَّةَ بْنُ سَالِمِ بْنِ مُهَنَّا بْنِ جَمَّازٍ سَاكِناً بِمَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ كَرَّمَهَا اللهُ . وَكَانَ مَعْدُوداً مِنْ أَهْلِ العِبَادَةِ وَالعِلْمِ ، وَعُدَّ مِنْ سَرَاةِ المَدِينَةِ ، وَهُوَ فِي جِوَارِ ابْنِ عَمِّهِ مَنْصُورِ بْنِ جَمَّازٍ أَمِيرِ المَدِينَةِ . ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ عَنْ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ وَاسْتَوْطَنَ العِرَاقَ وَسَكَنَ مِنْهَا بِالحَلَّةِ بَيْنَ كَرْبَلاءَ وَالنَّجَفِ فَمَاتَ نَقِيبُ الأَشْرَافِ قِوَامُ الدِّينِ بْنُ طَاوُوسٍ ، فَاتَّفَقَ أَهْلُ العِرَاقِ عَلَىٰ تَوْلِيَةِ أَبِي غُرَّةَ نَقَابَةَ الأَشْرَافِ مَكَانَهُ ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ إِلىٰ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ ، فَأَمْضَىٰ بِالمُوَافَقَةِ ، وَأَنْفَذَ لَهُ كِتَاباً يَأْمُرُ بِذَلِكَ وَبُعِثَتْ لَهُ الخِلْعَةُ وَالأَعْلامُ وَالطُّبُولُ عَلَىٰ عَادَةِ النُّقَبَاءِ فِي بِلادِ العِرَاقِ . وَمَا لَبِثَ أَبُو غُرَّةَ هَذَا أَنْ رَكِبَهُ الغُرُورُ بِمَا أَصَابَ مِنْ مَنْصِبٍ وَعِزٍّ

وَجَاهٍ ، وَاتَّخَذَ حَاشِيةً مِنْ أَهْلِ اللَّهْوِ وَالمُجُونِ ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، فَتَخَلَّىٰ عَنِ العِبَادَةِ وَالزُّهْدِ ، وَابْتَزَّ الأَمْوَالَ مِنَ الرَّعِيَّةِ ، وَلَمْ يُوَفِّرْ أَمْوَالَ النُّذُورِ التِي كَانَتْ تُحْمَلُ إِلَىٰ رَوْضَةِ الإِمَامِ عَلِيٍّ ، فَاخْتَلَسَهَا ، وَأُولِعَ بِتَكْدِيسِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ .

وَشَاعَ فِي الأَوْسَاطِ سُوءُ تَصَرُّفِهِ ، فَرُفِعَ أَمْرُهُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي سَعِيدٍ مَلِكِ العِرَاقِ ، وَجَاءَتْهُ النُّذُرُ بِأَنَّ المَلِكَ عَلَيْهِ غَاضِبٌ ، وَأَنَّهُ لا بُدَّ سَيُعَرِّضُهُ لِلمُسَاءَلَةِ وَالعُقُوبَةِ أَوْ العَزْلِ .

فَلَمَّا عَلِمَ بِتَغَيُّرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِ اسْتَعَدَّ لِلسَّفَرِ مُظْهِراً أَنَّهُ يُرِيدُ خُرَاسَانَ قَاصِداً زِيَارَةَ قَبْرِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَىٰ الرِّضَا فِي مَدِينَةِ طُوسَ . وَكَانَ قَصْدُهُ الفِرَارَ إِلَىٰ مَا هُوَ أَبْعَدُ مِمَّا يَنَالُهُ السُّلْطَانُ .

فَلَمَّا زَارَ الضَّرِيحَ اسْتَمَرَّ فِي تَوَجُّهِهِ شَرْقاً حَتَّىٰ وَصَلَ بِمَوْكِبِهِ إِلَىٰ هَرَاةَ وَهِيَ آخِرُ بِلادِ خُرَاسَانَ ، وَأَعْلَمَ أَصْحَابَهُ الذِينَ انْسَاقُوا مَعَهُ بِحُسْنِ نِيَّةٍ أَنَّهُ يُرِيدُ بِلادَ الهِنْدِ ،وَخَيَّرَهُم فِي أَمْرِهِم فَاخْتَارَ أَكْثَرُهُمُ الرُّجُوعَ إِلَىٰ العِرَاقِ حَيْثُ السُّلْطَانُ أَبُو سَعِيدٍ .

أَمَّا المَغْرُورُ أَبُو غُرَّةَ فَقَدْ تَجَاوَزَ بِمَنْ مَعَهُ أَرْضَ خُرَاسَانَ إِلَىٰ السِّنْدِ ، وَهُنَاكَ ضَرَبَ طُبُولَهُ وَوَزَّعَ أَنْفَارَهُ فَارْتَاعَ أَهْلُ القُرَىٰ ، وَحَسِبُوا أَنَّ التَّتَرَ حَمَلُوا عَلَيْهِم بِغَارَةٍ مِنْ غَارَاتِهِم الشَّعْوَاءِ المُدَمِّرَةِ ، وَانْدَفَعَ النَّاسُ فِي ذُعْرٍ شَدِيدٍ إِلَىٰ أَقْرَبِ العَوَاصِمِ وَأَعْلَمُوا أَمِيرَهَا الهِنْدِيَّ بِمَا سَمِعُوهُ مِنْ قَرْعِ الطُّبُولِ وَاصْطِنَاعِ الغَزْوِ .

اهْتَمَّ أَمِيرُهُم بِالأَمْرِ ، وَبَعَثَ الطَّلائِعَ لاسْتِكْشَافِ الخَبَرِ فَلَمْ يَرَوْا غَيْرَ عَشْرَةٍ مِنَ الفُرْسَانِ وَمَعَهُم جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالتُّجَّارِ مِمَّنْ صَحِبَ أَبَا غُرَّةَ فِي طَرِيقِهِ . وَلَمَّا رَأَوْهُم يَسِيرُونَ فِي زَهْوٍ مِنَ الأَعْلامِ وَالطُّبُولِ سَأَلُوهُم عَنْ شَأْنِهِم فَأَخْبَرُوهُم أَنَّ الشَّرِيفَ نَقِيبَ العِرَاقِ أَتَىٰ وَافِداً عَلَىٰ مَلِكِ الهِنْدِ .

رَجَعَ طَلائِعُ الجُنْدِ إِلَىٰ أَمِيرِهِم الهِنْدِيِّ وَأَخْبَرُوهُ بِوَاقِعِ الحَالِ . فَامْتَعَضَ لِمَا سَمِعَ . وَاسْتَضْعَفَ عَقْلَ الشَّرِيفِ أَبِي غُرَّةَ الذِي أَسْرَفَ فِي تَجَاوُزِ الحَدِّ ، حِينَ رَفَعَ الأَعلامَ وَضَرَبَ الطُّبُولَ فِي غَيْرِ بِلادِهِ . دَخَلَ الشَّرِيفُ أَبُو غُرَّةَ أُولَىٰ العَوَاصِمِ الهِنْدِيَّةِ وَضَرَبَ فِيهَا سُرَادِقَهُ ، وَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً تُضْرَبُ الأَطْبَالُ عَلَىٰ بَابِهِ غُدْوَةً وَعَشِيّاً ، بُكْرَةً وَأَصِيلاً .

وَكَانَ يُكْثِرُ الدُّخُولَ وَالخُرُوجَ ، وَتُقْرَعُ الطُّبُولُ مِنْ حَوْلِهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، وَهَذَا مَا لَمْ يَتَعَوَّدْهُ الهُنُودُ . وَعَادَةُ أَهْلِ الهِنْدِ : لا يَرْفَعُونَ عَلَماً وَلا يَضْرِبُونَ طَبْلاً إِلاَّ بِأَمْرٍ مَلَكِيٍّ وَبِتَخْصِيصٍ مِنْهُ لِذِي مَنْصِبٍ أَوْ وِلايَةٍ أَوْ وَقْتَ السَّفَرِ لِغَايَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَأَمَّا فِي حَالِ الإِقَامَةِ فَلا يُضْرَبُ الطَّبْلُ إِلاَّ عَلَىٰ بَابِ المَلِكِ خَاصَّةً ، بِخِلافِ مَا عَلَيْهِ الحَالُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَالعِرَاقِ ، فَإِنَّ الطُّبُولَ تُضْرَبُ عَلَىٰ أَبْوَابِ الأُمَرَاءِ .

بَعَثَ أَمِيرُ المَدِينَةِ بِخَبَرِ المَغْرُورِ أَبِي الطُّبُولِ إِلَىٰ مَلِكِ البِلادِ ، فَتَعَجَّبَ لأَمْرِهِ وَاسْتَنْكَرَ فِعْلَهُ وَأَمَرَ صَاحِبَ المَدِينَةِ أَنْ يَسْتَوْضِحَ ضَيْفَهَا الغَرِيبَ عَنْ حَاجَتِهِ فِي بِلادِ الهِنْدِ .

مَضَتْ أَيَّامٌ وَأَسَابِيعُ وَأَبُو غُرَّةَ نَازِلٌ بِالمَدِينَةِ عَلَىٰ هَذَا المِنْوَالِ ، حَتَّىٰ قَلْقَلَ الأَمْنَ وَالنِّظَامَ فِيهَا ، وَكَثُرَ حَوْلَهُ القِيلُ وَالقَالُ ، بَيْنَمَا انْتَظَرَ أَمِيرُ المَدِينَةِ الهِنْدِيُّ أَوَامِرَ المَلِكِ فِيمَا يَجْرِي عَلَىٰ يَدِ هَذَا الفُضُولِيِّ الغَرِيبِ وَحِينَ جَاءَتْ الأَوَامِرُ مِنْ مَلِكِ الهِنْدِ بِاسْتِيضَاحِ المُتَسَمِّي بِالشَّرِيفِ أَبِي غُرَّةَ عَنْ غَايَتِهِ مِنَ المَجِيءِ إِلَىٰ بِلادِ الهِنْدِ ، أَوْفَدَ إِلَيْهِ الأَمِيرُ ثَلاثَةً مِنَ الرِّجَالِ ، بَيْنَهُم رَجُلٌ مُسْلِمٌ ، اسْمُهُ أَحْمَدُ بْنُ إِيَاسَ . وَكَانَ أَحْمَدُ هَذَا

ذَا جَاهٍ ، وَلَقَبٍ مَنَحَهُ إِيَّاهُ المَلِكُ فَدُعِيَ بِخَواجَةِ جِهَانَ .

اسْتَطَاعَ الشَّرِيفُ أَبُو غُرَّةَ بِدَهَائِهِ وَمَكْرِهِ أَنْ يُقْنِعَ خَواجَةَ جِهَانَ مَنْدُوبَ المَلِكِ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ إِلَىٰ الهِنْدِ دَاعِيَةً مُبَشِّراً بِالإِسْلامِ ، وَأَنَّ قَرْعَهُ لِلطُّبُولِ وَرَفْعَهُ لِلأَعْلامِ كَانَ مِنْ قَبِيلِ زَرْعِ الهَيْبَةِ فِي النُّفُوسِ لِمُوَالاةِ سُلْطَانِ العِرَاقِ المُسْلِمِ .

صَرَفَ أَحْمَدُ بْنُ إِيَاسَ المُلَقَّبُ بِخَواجَةِ جِهَانَ صَاحِبَيْهِ الهِنْدِيَّيْنِ ، وَحَمَّلَ نَفْسَهُ عِبْءَ التَّفَاهُمِ مَعَ أَبِي غُرَّةَ ، وَكَفِلَ مَهَمَّةَ إِطْلاعِ أَمِيرِ المَدِينَةِ وَمَلِكِ الهِنْدِ عَلَىٰ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ . .

بَعَثَ مَلِكُ الهِنْدِ إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ إِيَاسَ المُلَقَّبِ خَواجَةَ جِهَانَ يَسْتَوْزِرُهُ ، وَيُوكِلُ إِلَيْهِ التَّصَرُّفَ بِعَقْلٍ وَحِكْمَةٍ مَعَ الوَافِدِ الغَرِيبِ ، لأَنَّهُ حَرِيصٌ كُلَّ الحِرْصِ عَلَىٰ حُسْنِ العَلاقَةِ مَعَ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ ، عَلَىٰ حُدُودِ بِلادِهِ ،

وَفَوَّضَهُ أَمْرَ إِقْطَاعِ الشَّرِيفِ أَبِي غُرَّةَ بَعْضَ القُرَىٰ وَالبُلْدَانِ ، إِذَاوَجَدَ ذَلِكَ مُنَاسِباً لِتَوْطِيدِ السِّلْمِ بَيْنَ شَعْبَيْنِ مُتَجَاوِرَيْنِ .

كَانَ الوَزِيرُ المُسْلِمُ أَحْمَدُ بْنُ إِيَاسَ خَواجَةُ جِهَانَ رَجُلاً مُؤْمِناً حَرِيصاً عَلَىٰ الفَضْلِ وَالمُرُوءَةِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاقِ ، وَعَقْدِ صِلَةِ المَحَبَّةِ بَيْنَ غَرِيبٍ وَغَرِيبٍ ، حَتَّىٰ يَعُمَّ الخَيْرُ وَالإِحْسَانُ بِمَا فِي ذَلِكَ إِفْشَاءُ السَّلامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَتَعْمِيرُ الزَّوَايَا لِلعَابِدِينَ المُتَنَسِّكِينَ ..

اخْتَارَ الوَزِيرُ خَواجَة جِهَانَ قَرْيَتَيْنِ مِنْ أَخْصَبِ القُرَىٰ وَأَعْمَرِهَا بِالسُّكَّانِ المُسْلِمِينَ ، وَنَصَّبَ عَلَيْهِمَا الشَّرِيفَ أَبَا غُرَّةَ ، وَالِياً يَأْمُرُ فِيهِمَا فَيُطَاعُ ، وَتُجْبَىٰ بِاسْمِهِ الضَّرَائِبُ وَالغَلاَّتُ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ ، مِنْهَا الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَاتُ ، وَمِنْهَا الأَوْقَافُ لِصَالِحِ الحَجِيجِ وَالمَرْضَىٰ وَالمَنْكُوبِينَ .

عِنْدَ هَذَا الحَدِّ مِنْ كَلامِ ابْنِ بَطُّوطَةَ تَثَاءَبَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ ، وَصَفَّقَ بِكَفَّيْهِ فَدَخَلَ الحَاجِبُ لِتَوِّهِ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِغَايَةِ الأَدَبِ وَالإِحْتِرَامِ ، فَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُ فَهَمَسَ فِي أُذُنِهِ بِبِضْعِ كَلِمَاتٍ فَخَرَجَ مُسْرِعاً .
وَالتَفَتَ السُّلْطَانُ إِلَىٰ مُحَدِّثِهِ وَنَدِيمِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ قَائِلاً :

لا أَشُكُّ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ أَنَّ أَبَا غُرَّةَ المَغْرُورَ سَيَنْكَشِفُ أَمْرُهُ لِوَزِيرِ مَلِكِ الهِنْدِ صَاحِبِ القَلْبِ الطَّيِّبِ ، وَسَيَلْقَىٰ جَزَاءَ غُرُورِهِ ، وَحُبِّهِ المُفْرِطِ لِجَنْيِ المَالِ ، وَالتَّطْبِيلِ فِي آذَانِ النَّاسِ .

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مَوْلاهُ السُّلْطَانَ أَبَا عِنَانٍ :

ـ أَصَبْتَ يَا مَوْلايَ بِحَدْسِكَ وَتَخْمِينِكَ . . وَتَقْضِي عَدَالَةُ رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ يَكُونَ الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ ، وَأَنْ يُرَدَّ كَيْدُ الكَائِدِ إِلَىٰ نَحْرِهِ ، وَأَنْ يُعَاقِبَ الحَرِيصُ عَلَىٰ المَالِ بِحِرْمَانِهِ مِنْهُ فِي لَحْظَةِ قَضَاءٍ وَقَدَرٍ ، يَكُونُ بِهَا عِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ . .

قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ مُمَازِحاً مَوْلاهُ السُّلْطَانَ :

مَا دَامَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، هَلْ يَسْمَحُ لِي مَوْلايَ السُّلْطَانُ بِكِتَابَةِ بَقِيَّةِ القِصَّةِ مِنْ عِنْدِي ، بِالإِسْتِغْنَاءِ عَنْ رِوَايَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، المُمِلَّةِ ؟ !

ضَحِكَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُجِيباً كَاتِبَهُ ابْنَ جُزِّيٍّ :

ـ سَامَحَكَ اللهُ يَا بْنَ جُزِّيٍّ . . لَعَلَّكَ تَعِبْتَ مِنَ الكِتَابَةِ ، فَأَلْصَقْتَ تُهْمَةَ الإِمْلالِ بِخَيْرِ نَدِيمٍ وَمُتَحَدِّثٍ . وَجَزَاؤكَ أَنْ تُمَزِّقَ مَا كَتَبْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَتُعِيدَ كِتَابَتَهُ فِي سِجِلِّكَ مَرَّةً ثَانِيَةً ، إِلاَّ إِذَا سَامَحَكَ ابْنُ بَطُّوطَةَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ النَّدِيمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ سَامَحْتُهُ يَا مَوْلايَ إِكْرَاماً لِخَاطِرِكَ . .

هُنَا ، اسْتَأْذَنَ نَفَرٌ مِنَ الخَدَمِ عَلَى المَجْلِسِ ، وَبَسَطُوا أَمَامَ السُّلْطَانِ وَصَاحِبَيْهِ مَائِدَةً عَامِرَةً بِالمَآكِلِ وَالفَاكِهَةِ وَالنُّقُولِ ، وَأُدِيرَتْ كُؤُوسُ الجُلاّبِ المُثَلَّجِ عَلَى الحَاضِرِينَ فَانْتَعَشَتِ النُّفُوسُ وَتَجَدَّدَتْ ، وَزَالَ المَلَلُ وَبَدَا السُّلْطَانُ مُسْتَعِدّاً لِسَمَاعِ المَزِيدِ مِنْ مُنَادِمِهِ وَمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ بَلَغَكَ يَا مَوْلايَ السُّلْطَانَ أَنَّ الوَزِيرَ الهِنْدِيَّ خَواجَةَ جِهَانَ قَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الفَضْلِ وَالمُرُوءَةِ وَمَكَارِمِ الأَخْلاقِ ، وَكَانَ هُوَ الذِي سَعَىٰ لِتَأْمِيرِ الشَّرِيفِ أَبِي غُرَّةَ عَلَىٰ قَرْيَتَيْنِ يَكُونُ لَهُ رَيْعُهُمَا وَخَرَاجُهُمَا ، فَاسْتَمَرَّ أَبُو غُرَّةَ عَلَىٰ مِنْوَالِهِ مِنَ الطَّمَعِ بِالمَالِ وَوَلَعِهِ بَالتَّطْبِيلِ كُلَّمَا دَخَلَ وَخَرَجَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ بِالوِلايَةِ الجَدِيدَةِ .

وَقَدْ حَصَّلَ أَبُو غُرَّةَ بِاسْتِغْلالِهِ وَقَبْضِ يَدِهِ مَالاً كَثِيراً ، ثُمَّ أَرَادَ الخُرُوجَ بِمَا مَعَهُ خَارِجَ الهِنْدِ فَأَفْهَمَهُ صَاحِبُهُ الوَزِيرُ خَواجَةُ جِهَانَ بِأَنْ لا بُدَّ مِنْ اسْتِئْذَانِ مَلِكِ الهِنْدِ لِيُقِيلَهُ مِنَ الوِلايَةِ وَيَسْمَحَ لَهُ بِالخُرُوجِ ، وَخَشِيَ أَبُو غُرَّةَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ فَلا يُؤْذَنَ لَهُ أَوْ أَنْ يَلْفِتَ الأَنْظَارَ بِمَا يَحْمِلُ مَعَهُ مِنْ بِدَرِ الأَمْوَالِ وَالجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ جَابِياً لاوَالِياً . وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ خَوْفٍ وَحَذَرٍ ، وَرَغْبَةٍ بِالتَّسَلُّلِ خَارِجَ الهِنْدِ ، وَهُوَ لا يَأْمَنُ عَلَىٰ المَالِ أَحَداً مِنْ أَعْوَانِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ سَرَّحَ فِرْقَةَ الطَّبَّالَةِ وَاسْتَغْنَىٰ عَنِ التَّطْبِيلِ ، شَعَرَ الخَدَمُ وَالأَعْوَانُ بِغَايَتِهِ المُبَطَّنَةِ ، وَأَرَادَ الفِرَارَ مِنْ طَرِيقِ السَّاحِلِ فَرُدَّ مِنْهُ بِحُجَّةٍ ذَكِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّ المَوْجَ عَالٍ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ ، وَأَنَّ مَزِيداً مِنْ بِدَرِ المَالِ بِانْتِظَارِهِ فِي قَصْرِهِ مِنْحةً مِنْ مَلِكِ الهِنْدِ .

رَجَعَ المَغْرُورُ أَبُو غُرَّةَ إِلَىٰ قَصْرِهِ ، وَاحْتَبَسَ نَفْسَهُ فِي حُجْرَةٍ جَمَع فِيهَا كُلَّ مَا يَمْلِكُ وَمَا يُرِيدُ الهُرُوبَ بِهِ .

جَمَعَ أَبُو غُرَّةَ أَكْيَاسَ المَالِ وَجَعَلَهَا تَحْتَ فِرَاشِهِ ، وَنَامَ عَلَيْهَا لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَلَمْ يَزَلْ يَزْدَادُ عَلَيْهِ الهَمُّ وَالأَرَقُ مِنْ خَوْفِ ضَيَاعِ المَالِ ، وَفَوَاتِ الفُرْصَةِ بِتَهْرِيبِهِ إِلَىٰ بَعِيدٍ . .

وَفِي لَيْلَتِهِ الأَخِيرَةِ فِي قَصْرِ الإِمَارَةِ ، غَزَاهُ وَجَعٌ مُفَاجِئٌ وَشَدِيدٌ خَرَجَ بِهِ يَسْتَغِيثُ وَلَم يَكُنْ حَوْلَهُ طَبِيبٌ وَلا مُنْجِدٌ ، فَارْتَمَىٰ فَوْقَ بِيْدَرِ المَالِ مَيْتاً لِيَعْجَبَ مِنْ أَمْرِ حِرْصِهِ وَبُخْلِهِ ، لَيْسَ صَاحِبُهُ الوَزِيرُ خَواجَةُ فَحَسْبُ بَلْ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ مِنْ أَهَالِي قُرَىٰ الهِنْدِ وَخُرَاسَانَ وَالعِرَاقِ .

وَاسْتَمَرَّ مِنْ بَعْدِهِ حَدِيثُ الكَثِيرِينَ عَنِ المَغْرُورِ أَبِي غُرَّةَ وَهُوَ أَبُو

الطُّبُولِ ، الذِي خُلِعَ عَلَيْهِ لَقَبُ نَقِيبِ الأَشْرَافِ ، فَأَبَاهُ ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ أَبَا الدُّنْيَا الفَانِيَةِ ، أَبَا التَّظَاهُرِ وَالحِرصِ وَالطَّمَعِ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِالله العَلِيِّ العَظِيمِ . .

عَلَّقَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ قَائِلاً : لَيْسَ أَبُو غُرَّةَ أَوَّلَ رَجُلٍ أَرْدَاهُ الطَّمَعُ وَالغُرُورُ . . وَلَنْ يَكُونَ آخِرَ هَذَا المَعْدِنِ مِنَ البَشَرَ . .



☆☆ ☆☆

☆